المحاضرة الثامنة: الخطاب من منظور لساني

تمهيد :

تكتسب دراسة الخطاب أهمية قصوى في العصر الحالي بوصفه الإطار الذي تُصاغ فيه المعرفة وتُمارَس فيه السلطة. يتيح لنا تحليل الخطاب فهم كيفية بناء الواقع الاجتماعي والأيديولوجي من خلال اللغة، متجاوزًا حدود الجملة إلى الأبعاد التداولية والسياقية. نظراً لتعدد أشكال الخطاب (إعلامي، سياسي، رقمي)، يوفر هذا المنظور اللساني أدوات تحليلية أساسية لكشف آليات الإقناع والتأثير والتفاعل البشري المعقد.

أولا-تعريف الخطاب:(Discourse)

التعريف اللغوي العام (أشمل من الجملة/النص): يُعرّف الخطاب (Discourse) لغوياً بأنه وحدة لغوية أكبر وأشمل من الجملة أو النص المجرد، حيث يمثل اللغة في سياقها الفعلي والاستعمالي. هو ليس مجرد تتابع للكلمات، بل فعل تواصلي يضم المُرسِل والمُرسَل إليه والهدف، ويتأثر بالظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة. بالتالي، يركز هذا التعريف على الجانب التداولي والوظيفي للغة، بوصفها أداة للتفاعل وإنجاز الأفعال.

ثانيا-النص والخطاب: التمييز بين البنية اللغوية والفعل التواصلي:

يُفرَّق في اللسانيات الحديثة بين النص (Text) والخطاب .(Discourse) حيث يُنظر إلى النص على أنه بنية لغوية مكتملة، كوحدة منظمة من الجمل، وقد وصفته لسانيات النص (Text Linguistics)على يد باحثين مثل دي بوجراند ودريسلر بأنه "كيان لساني ثابت" يتميز بآليات الترابط (Cohesion) والانسجام .(Coherence)يمثل النص الهيكل الشكلي للغة، أو ما يمكن اعتباره "النتيجة" أو "المنتج" اللغوي.

على النقيض، يُعتبَر الخطاب فعلاً تواصلياً وسياقياً، يجسد اللغة في الاستعمال الفعلي .(Language in Use)وكما قال مايكل هليداي(M.A.K. Halliday) ، فإن الخطاب هو "نظام لغوي اجتماعي"، حيث يرتبط بالمتحدثين والقصد والتفاعل والظروف المحيطة. هذا التركيز على الجانب التداولي (Pragmatic)هو ما يجعله أشمل من النص؛ فالخطاب يتضمن التحليل النقدي للعلاقات الاجتماعية والقوة كما أوضح فيركلاف.

الخطاب واللسانيات

التحول من الجملة إلى الخطاب:

شهدت اللسانيات الحديثة تحولاً جذرياً في بؤرة اهتمامها، مبتعدة عن التركيز الحصري على الجملة كوحدة أساسية للتحليل، وهو ما كان سائداً لدى المدارس البنيوية والتوليدية الأوائل مثل دي سوسير ونوعوم تشومسكي. كان الهدف هو دراسة الكفاءة اللغوية وبنية الجملة الداخلية بمعزل عن سياق الاستعمال. إلا أن هذا التضييق أدى إلى قصور في معالجة ظواهر لغوية هامة مثل الترابط عبر الجمل. لذا، تطورت اللسانيات باتجاه وحدات أكبر هي الخطاب،

ما أتاح للباحثين مثل مايكل هليداي وديل هايمز (Hymes) استكشاف اللغة في سياقها الفعلي (الأداء والتداول)؛ فالخطاب أصبح الإطار الأشمل الذي يأخذ بعين الاعتبار العوامل الاجتماعية والمعرفية والموقفية التي تحدد معنى اللغة ووظيفتها.

- **أهمية السياق في دراسة الخطاب**

يُعد السياق (Context) العنصر الأبرز الذي يميز دراسة الخطاب عن دراسة الجملة، فهو الذي يحدد معنى اللغة ووظيفتها التداولية. لا يمكن فهم أي تعبير أو فعل لغوي بشكل كامل بمعزل عن الظروف التي أُنتج فيها. بالتالي، يمثل السياق الإطار الشامل الذي يفسر مقاصد المتحدث وكيفية تأثير الخطاب على المتلقي.

السياق اللغوي: يشير إلى البيئة النصية المحيطة بالوحدة اللغوية قيد التحليل. هو مجموع الكلمات والجمل التي تسبق وتلي عبارة معينة داخل النص الواحد. يعمل السياق اللغوي كأداة ضرورية لتحديد مرجعيات الضمائر وحل الغموض اللغوي، مما يضمن الترابط (Cohesion) الداخلي للخطاب.

السياق الخارجي/الموقفي: ويشمل العوامل غير اللغوية المحيطة بعملية التواصل. يتضمن هذا البعد هوية المشاركين، علاقات القوة بينهم، مكان وزمان الخطاب، والإطار الثقافي والاجتماعي الأوسع. هذا السياق هو ما يمنح العبارة قوتها التداولية ويساعد في فهم الدلالات الضمنية.الترابط والانسجام :(Cohesion and Coherence) شرح الآليات اللغوية التي تحقق الترابط داخل الخطاب (مثل الإحالة، الحذف، الوصل، والتكرار).

نماذج ونظريات تحليل الخطاب:

أ. تحليل الخطاب الكلي(Macro-linguistics)

لسانيات النص:

أسس هذا النموذج بوضوح في عمل دي بوجراند (de Beaugrande) ودريسلر(Dressler) ، حيث انتقل التحليل اللساني من مستوى الجملة إلى النص كوحدة متكاملة وقائمة بذاتها. لقد أكدا أن كون النص تواصلياً لا يتوقف فقط على صحته النحوية، بل على استيفائه المعايير السبعة المترابطة. فبينما يمثل الترابط (Cohesion) الروابط اللغوية السطحية (كالإحالة والوصل)، يمثل الانسجام (Coherence) الروابط الدلالية والمعنوية العميقة التي تجعل النص مفهوماً ومترابطاً منطقياً. كما ساعد إدراج معيار التناص (Intertextuality) في ربط النص بالمعرفة السابقة وبالنصوص الأخرى المماثلة، مما مهد الطريق لتحليل الخصائص البنيوية للنصوص التي تتجاوز حدود الجملة إلى وحدات أكبر.

البلاغة الجديدة/التداولية:

تُمثل التداولية تحولاً بارزاً نحو دراسة اللغة في الاستعمال، وتعتبر الخطاب فعلاً بحد ذاته. انطلقت النظرية من عمل الفيلسوف جون أوستين(John Austin) ، الذي أكد في مقولته الشهيرة "كيف نفعل الأشياء بالكلمات" على وجود ثلاثة أفعال متزامنة :فعل القول(Locutionary Act) ، والفعل الإنجازي (Illocutionary Act) وهو القصد أو القوة، والفعل التأثيري (Perlocutionary Act) وهو النتيجة. وقد قام سيرل (Searle) بتصنيف الأفعال الإنجازية (مثل التعبير عن الالتزام أو الإعلان). تحليل الخطاب في هذا الإطار يركز على الكشف عن الوظيفة العملية الكامنة خلف البنية اللغوية، مما يتيح فهم كيفية استخدام المتكلم للغة ليُحدِث تغييراً أو ينجز هدفاً في موقف تواصلي معين.

ب. التحليل السوسيو-لساني(Socio-linguistic Analysis)

التحليل المعرفي للخطاب

يربط فان دايك، وهو أحد أبرز المنظرين في تحليل الخطاب، بين البنى اللغوية للخطاب وبين الإدراك الاجتماعي (Social Cognition)، مؤكداً أن الخطاب هو منتج ومعالِج معرفي واجتماعي. طور مفهوم النماذج الذهنية (Mental Models)لتوضيح الكيفية التي يستخدم بها الأفراد معرفتهم لتأويل الخطاب وفهمه وتخزينه في الذاكرة. والأهم من ذلك، قدم مفهوم البنية العليا(Superstructure) ، وهي المخططات التجريدية التي تنظم المحتوى (مثل بنية السرد أو التفسير)، والتي تساهم في التوجيه الفعال لعملية الاستيعاب والتذكر، ما يفرض ضرورة تحليل البنية اللغوية إلى جانب المعرفة المشتركة بين المشاركين.

التحليل النقدي للخطاب(Critical Discourse Analysis - CDA)

يُعدّ CDAإطاراً منهجياً يسعى إلى تجاوز الوصف البنيوي للغة ليصبح شكلاً من أشكال النقد الاجتماعي، حيث ترى مقاربة فيركلاف الخطاب كوسيلة لـإنتاج وإعادة إنتاج السلطة والأيديولوجيا في المجتمع. ينطلق تحليل فيركلاف من نموذج ثلاثي الأبعاد: تحليل النص ذاته (البنى اللغوية)، تحليل الممارسة الخطابية (عملية الإنتاج والاستقبال)، وتحليل الممارسة الاجتماعية (الظروف التاريخية والاجتماعية التي تحيط بالخطاب). الهدف الأساسي هو تعرية الأساليب التي تُستخدَم بها البنى اللغوية (مثل الإقصاء، التضمين، اختيار المفردات) لتبرير الهيمنة وتأطير وتشكيل الواقع الاجتماعي لصالح جماعات معينة.

أدوات ومستويات التحليل اللساني للخطاب

تحليل البنية اللغوية (المستوى الشكلي والدلالي)

تُعدّ المستويات اللغوية الأدوات المنهجية الأساسية لتفكيك الخطاب، حيث تبدأ بتحليل المستوى المعجمي (Lexical)لفحص الاختيار الانتقائي للمفردات وعلاقاتها، كما في دراسة الترادف والغموض اللذين قد يحملان دلالات أيديولوجية. ينتقل التحليل بعد ذلك إلى المستوى النحوي/التركيبي (Syntactic)، والذي يركز على بنية

الجملة، خاصةً استخدام المبني للمجهول لإخفاء فاعل الفعل ومصدر المسؤولية، وهي تقنية أوضحها نورمان فيركلاف (Norman Fairclough)في تحليله النقدي. يرى فيركلاف أن" < :التحليل النقدي للخطاب يجب أن يركز على كيفية تشكيل البنى اللغوية للعلاقات الاجتماعية والسلطة ".هذا التحليل الشكلي يُكمل بالمستوى الدلالي (Semantic)للبحث في الافتراضات المسبقة والمعاني الضمنية الكامنة خلف النص.

تحليل الوظيفة الاجتماعية (المستوى التداولي والوظيفي)

لا يكتمل التحليل اللساني للخطاب دون فهم وظيفته الاجتماعية والتداولية. في هذا الصدد، يقدم مايكل هليداي (M.A.K. Halliday)نظريته في اللسانيات الوظيفية، مقسماً وظائف اللغة إلى ثلاث مكونات ميتاوظيفية. هي:

الوظيفة التفاعلية/الشخصية(Interpersonal Function) التي تدرس كيف تُبنى الأدوار الاجتماعية وعلاقات القوة والمواقف بين المتحدث والمتلقي من خلال الخطاب. يعتبر هليداي أن: اللغة منظومة اجتماعية تُنجز الوظائف الاجتماعية والثقافية في السياق ". لذا يتم تحليل الاختيارات اللغوية ليس فقط لمعناها (الوظيفة الفكرية)، ولكن لتأثيرها المباشر في التفاعل (الوظيفة التفاعلية)، مما يربط بشكل وثيق بين البنية اللغوية والسياق الاجتماعي الذي وُلدت فيه.

الوظيفة الفكرية/التجريبية(Ideational/Experiential Function) وتعنى عند هليداي، باستخدام اللغة لتمثيل العالم والتجربة من حولنا وفي داخلنا، حيث تشمل فهم المعنى من حيث ماذا يحدث (العمليات والأحداث)، ومن أو ماذا يشارك (المشاركون/الأدوار)، ومتى وأين وكيف ولماذا (الظروف والسياق المحيط). ويتم تحليلها لغوياً بشكل أساسي عبر نظام البنية التعدّيّة (Transitivity System) الذي يفكك الاختيارات الخاصة بالأفعال والمشاركين والظروف في الجملة لتحليل المحتوى الفكري/التجريبي للخطاب.

الوظيفة النصية/التنظيمية(Textual Function) فتتعلق باستخدام اللغة لتنظيم المعلومات وربطها ببعضها البعض وبالسياق، مما يضمن أن يكون الخطاب متماسكاً (Cohesive) ومتسقاً(Coherent) ، وهي تسمح بتحويل المعاني الفكرية والتفاعلية إلى رسالة متكاملة وواضحة يمكن للمستمع فهمها.